إصلاح الطرق الصوفية

(بقية) الدكتور مصطفى كمال وصفى
المستشار المساعد بمجلس الدولة

كان الدافع إلى الانكباب من الخلفاء فى الطريقة بدون أى داع هو مشكلة تمويل الطريقة وزيادة قوتها المالية عن طريق كثرة المنضمين إليها .

وبالرغم من أن هذا الحب قد تسرب إلى الطرق تدريجيا وعلى مر السنين . فالملاحظ أن المنضم إلى الطريق أو من ينال رتبة فيه . يكون عظيم الشكر والامتنان ويجنح بطبيعته إلى أن يقدم صدقة يعبر بها عن شكره وامتنانه ، وذلك شأن الإنسان فى جميع مواقف سروره وارتياحه إذ يميل وقتئذ إلى البذل وإلى أن يشاركه الغير سروره .

ولذلك يتطوع الخليفة الجديد عند منحه الإجازة إلى تقديم شىء على سبيل معاونة فقراء الطريق وعلى سبيل التحية للطريقة التى صار من أصحاب الرتب فيها . وعلى مر السنين أصبحت هذه البادرة عادة وأصبحت أمراً محبوباً . بحيث يكاد يتعذر أن يتخلف عنها أى شخص قادر على بذلها .

وبذلك أصبح هناك مورد شبه دائم للطرق عن طريق ما يقدم بمناسبة صرف اجازات الخلافة .

وعلى مر السنين تكاثر الخلفاء . واختفى من الاعتبار أن يكون الشخص قد تربى تربية صوفية كافية ، وحل محله إعتبار جديد ، وهو إنفاق المورد المالى للطريقة وبأى شكل . وإيجاد من يساهم فى نفقاته الباهظة المستمرة .

وأنى أقرر بما أشعر به وهو أن القائمين على الطرق محرجون فى اتجاه هذا النحو فهم يتفادون بذلك أن يحيق بهم الخراب المالى ، وأن تتلاشى أموالهم الخاصة - مهما كانت كثيرة - تحت إلحاح حاجات الطريق التى لا تنقطع ، أو أن تنقضى الطريقة وينفض منها المريدون ولاشك فى أنها عزيزة عليهم .

وتحت وطأة هذه الظروف القاهرة ، أستتب الوضع الجديد فى كثير من الطرق وأصبح مألوفا .

وهذا الوضع نفسه هو الذى أدى إلى مختلف العيوب التى نشاهدها فى الطرق والتى تنحصر فيما يلى :

١ - الاعتراف بطائفة كبيرة من الجهلة الذين لم يتلقوا أى تلقين صوفى .

كمرشدين ومربين لغيرهم . فهؤلاء هم السبب فى كثير مما نتعفف عن ذكره .

٢ ـ ظهور كثير من البدع والانحرافات وتفشى روح الكبرياء بين هذه الطبقة بسبب عدم أعدادهم الصوفى :

٣ ـ ابتعاد الطبقة المهذبة المثقفة التى ينتظر منها الخير والتى تقدر على الإصلاح . ولاشك أن فى بلادنا الكثيرين ولكنهم لا يجرؤن على الظهور حتى لا يعتبر ذلك منهم رضا عن الوضع العام وحتى لا يقرن اسمهم أ[illegible] الناس على انتقاده .

٤ ـ خروج المشايخ عن وظيفتهم الأساسية وهى التربية والإرشاد ، إلى وظيفة جديدة هى مجابهة هذه العناصر الفاسدة وأخذها مرة بالحيلة وأخرى بالشدة ، والتدخل فى المنازعات التى تنشأ بسببهم . ثم لا يلبث الشيخ نفسه أن يصيبه رذاذ من انحرافات هؤلاء . الناس ونكاياتهم فيضطر إلى أن يتخذ لنفسه بطانة ، ليدفع عن نفسه عدوان هؤلاء المنضمين للطريق ، والذين لامناص له من الاحتكاك بهم ، سواء كانوا من أبناء طريقته ، أو من أبناء طريقة أخرى يفهمون التصوف على أنه طلاوة وتحزب وسيطرة .

٥ ـ تكاثر التهم على الطرق ، وكثرة العداء الموجه لها مما جعلها تتحصر فى نفسها بعدم العطف عليها والانسجام بينها وبين كثير من الهيئات فجعل ذلك مهمتها صعبة وجعل الميدان الذى تعمل فيه شاقا عسيرا مشحونا بمواقف الخذلان والعداوة والاستهتار بها .

وبذلك فقد هذا المرفق إلى حد بعيد وأصبح غير قادر على مجابهة أعباء [illegible] قبول أى [illegible]

٣ ـ خطة الإصلاح

ومن هذا نرى أن بيت الداء هو ما تعانيه الطرق من عسر مالى تعجز معه عن مواجهة أحيائها الدائمة المضطردة .

والواقع أن السبب فى ذلك هو نقص النظام القانونى . فهو الذى ترك الطرق الصوفية بلا مسئولة ، ولم يمد لها يده ، وأقبل على مختلف التشكيلات والهيئات يمدها ويسير لها كيفية الحصول على مالها وكيفية جمع ما تشاء من أموال ولها سبيل الرقابة المعقولة والإرشاد من جانب وزارة الشئون الاجتماعية أو غيرها وهى رقابة لا تعوق [illegible] ولكن [illegible] وتعمل [illegible]

فالمؤسسات والجمعيات الخاصة وذات النفع العام والنقابات وكافة صور النظم والهيئات التى تعمل لغرض عام ينظمها القانون ويحصيها ويبين لها وسائل حصولها على موارد انتظامها ومأمونة لا نقد فيها ولا تحريج . إلا الطرق الصوفية فقد أهمل القانون شأنها فبقيت فى حيرة من أمرها تعانى أعباءها الواسعة الى جانب والعداوات الجديدة التى تضاف إليها كل يوم والعقبات التى ما تكاد تتخلص من واحدة منها حتى تواجه بدل العقبة عديد ومزيد من العقبات . وفى كل يوم ينضم إلى معسكر المعاندين والمستهزئين والمناوئين كثيرون وفى كل يوم تزداد أخطاؤنا وتطول قائمة حسابنا والنهاية المحتومة أننا لن نواجه الحياة بعد ذلك ولن نستطيع تصريف رسالتنا إلا إذا أقبلنا على الإصلاح واستقناه وعرفنا أن فيه حياتنا واستمرارنا .

ولقد فكرنا طويلا (أنا وإخوانى فى الطريقة التى أنتمى إليها فى طريق الإصلاح فوجدنا أن البداية فيه هو أن [illegible] الدائمة الثابتة . وان يكون على هذه المالية رقابة كافية من الدولة ، وان تجمع أموالها بوضوح وفى النور كما تصرف بوضوح وفى النور أيضا .

وقد علمت أن هذا التفكير قد وجد فى طرق أخرى كالطريقة البيومية والطريقة الفتيحية وغيرها وبعضها أخرجه فعلا فى بعض الصور

وقد رأيت وإخوانى ان صياغة مالية الطريقة فى هيئة جمعية خيرية يكفى مؤقتا لتحقيق هذا الهدف . وكان فى تشجيع شيخ الطريقة الرفاعية التى اتشرف بالانتساب لها وسعة افقه . وصادق رغبته فى الإصلاح ـ خير معين على تنفيذ هذه الخطة . فهذه الجمعية تكفى لمواجهة النقص الذى نحن بصدده وتسد الثغرة التى خلفها القانون فى البناء الصوفى وترتب عليها تقهقره واهتزاز أركانه . ويمكن القول بأن التجارب الأولى تسفر ولله الحمد عن نجاح قام من حيث استجابة أبناء الطريقة لهذه الوسيلة الجديدة واطمئنانهم بها واستبشارهم إليها وإن كانت الجمعية لم تبدأ بعد كامل نشاطها فهى فى طور التنظيم والاعداد ، إلا أن العملية التى قامت بها كانت عمل [illegible]

واستبشار من رجال الطريقة وبذلك أعتقد أن التصوف يدخل فى عهد جديد من النور والتنظيم ويستطيع ان يجاب أعباءه الكثيرة ويتقدم طامئنا فى ميدان البناء الاجتماعى كما يساهم فى النهضة الشاملة التى عمت البلاد .

وأعلم ان مشيخة الطرق الصوفيه تفكر الآن فى اصدار لائحة جديدة لتنظيم الطرق الصوفية، ولا نعلم خطوطها الرئيسية - ولكننا نأمل فى أن تضع نظام التصوف فى وضعه اللائق بين الهيئات ذات الكيان القانونى ، وان تنظم نشـــاطها تنظيما يجعل بينها وبين سائر النظم القانونية فى البلاد انسجاما وأرتباطا يسهل لها عملها ويجعلها قادرة على متابعة أغراضها .

ولعلى قد أشرت فى البداية إلى أن التصوف يعتبر خدمة عامة ومرفق من المرافق الهامة للبلاد . وأن مجلس الدولة فى أحكامه قد عنى ببيان أن مشيخة الطرق الصوفية تقوم بمهمة ادارية من نفس النوع الذى تقوم به الحكومة فواجبنا لو أن هـذه الطبيعة أخذت مأخذها فى التعديل الجديد وعمل حسابها فيما يوضع من أحكام .

ولنا أكبر الأمل فى نشاط السيد شيخ مشايخ الطرق الصوفية وصادق عزيمته وتحمسه للاصلاح ، وفى حسن استعداد مشايخنا الصوفيين من اعضاء المجلس الصوفى الأعلى ، كما أن لنا الأمل فى حسن تقدير حكومة الثورة لهذه الانتفاضة الصوفية ، والرغبة الصادقة التى تبديها طائفه كبيرة ، من الأمة نحو استصلاح نفسها ، وعهدنا بها تساعد كل راغب فى الإصلاح على بلوغ مناه .

والحمد لله رب العالمين .

مصطفى كمال وصفى الرفاعى
مستشار مساعد بمجلس الدولة

* * *